

# الظفة الثالثة

كمال ممدوح حمدي

## حديث شخصي.. الى المقعد المخملي..!! (١)



«بدون اسم» لوحة للفنان عبد الجبار البحيا، بلا تاريخ مثبت، مقتنيات خاصة..

فرحة في قلب من نال مكانتك فعدا يهجرك الى ما يقدمه

عليك، هم عابرون بك لا باقون معك..

تنتظر سيدك، تركك للتو، او يعود اليك للتو، دخل الغرفة منذ لحظة، امامك الآن يحجبه عنا باب لا يزال مفتوحا، يبذل ثيابه، ويخلد اليك..

لماذا أنت وحدك الآن؟، في انتظار انت ام في وداع؟ اكان سيدك امرأة؟ سيدة عجوز طيبة اختارت لك موقعك في طبق علوي، الى جوار النافذة.. كل يوم تجلس فوقك ترقب من النافذة فلذة الكبد يروح، تصحب من قلبها كل الدعوات، أنت سمعتها وسمعت آيات قرآنية تطلب له السلامة، وتستظيل حبتا عينيتها في خط للبصر، يمتد ما بين المحجرين في رأسها وبين الوحيد الرناخ، حتى اذا تمددت العينان الى آخرها فكتا من الالتصاق بجسمه وانكمشتا كخيط مطاطي، وعادتا الى الاستدارة، واختفى الغالي عن النظر.. تغفو الطيبة فوقك، ولكن ساعة القلب توقفها مع عودته، عن بعد تراه، هي الآن قد الممت عافيتها المهزومة وقامت بقوة الحب على عجل تجرجر قديمين مغناطيسيين لا ترفعان عن الأرض لتعد للغالي طعام الغداء، لم تجد متسعا من الوقت لتفلق خلفها الباب، فعندما يصل القادم الذي رآته على بعد مائة متر ستكون قد اوشتك تقطع مسافة المترين لتستقبله..

اعرفت ماذا يعني ان يحب الطيبون؟، ام ان سيدتك فاتنة صغيرة، يفتح قلبها للحياة؟، اعرف الآن سرا من اسرار تهلك عليها، فالباب مفتوح على دعوة للتعجل.. لانها كل يوم تجلس فوقك وتمسك بسماعة الهاتف، وتقول لزوج الوعد كلاما يطيب لك، ما انبل اللحظة التي يكون فيها الانسان انسانا، ما انبلك تحفظ الاسرار لسيدتك الصغيرة، الانك واحد، لا تتسع لزوجة حبيبة وزوج محب معا، اثرت ان تبقى وحدك تقرا ما في عيونهما: «هـ ما احلى عيون العاشقين حين يبسمون، ويؤكدون، بحرمة الشجون، بان العهد لن يهون..، انت سعيد بهما ان فارقت ولم يبرحك، وسعيد ان شكسك وتراحما عليك..، الا تقول شيئا؟ نحن الآن بالخارج نراك عبر باب مفتوح، ولكم لم توجه الينا دعوة بالدخول، او شكوى بالانصراف، تدعونا ولا تدعونا فانت مخلص وكنوم، لسيدك الكريم والوليم، لسيدتك الطيبة او لغائتك الرقيقة، سنرى ولا نعرف ايدا، تبقي خزانة سر الاسرار للوجود بكامله، وضوحا غامضا، او غموضا سافرا، فمن يملك القدرة على ان يقرأ يقينا على وجهك، ليقدر فيك صبرك، او يزيل عنك كربك، او يحسدك؟

كم اغبطك انا الآن.. اكل هذه الدنيا لتتم على جزء من صفحة الوجه فيك ترك فوقها انسان ما توقيص جلسته ومضى!!

لقد رايت في حياتك الف كرسي، ولكن واحدا فقط اثار فيك الاهتمام.. ذلك الذي تراه عبر الفن..!

ها انت وحدك الآن، بعد ان يارك سيدك، اكانت سيدة؟، تعالج وقتك الملول، او تدفع عن نفسك سام الانتظار، او ربما تتنفس الصعداء بعد ان كان اشتعال الياس فيك قد احرق الامل.. اقلت اخيرا رحل؟ اكانت جلسته فوقك قد طالت، وطالت معها او جاعك؟ قعيدا ربما كان، من بيت عز، صنعوك له وكسوا وجهك بهذا الملمس المخملي، ويلون ازرق يغري على استرخاء مريح، صبرت على احتماله دها، واثار جلسته فوقك تشهد كم طال مقامه عليك وكم تذرعت بالصبر، لم يبرحك ليلا او نهارا، ربما قامت بينك وبينه علاقة حميمة او كراهية بغضبة.. كان ضخما وثقيلًا، تلك اثار جلسته، ازعجتك ضحكاته الفجة لان اوصالك اهتزت وتكثت معها، او عصبيته وصراخه حين يطلب ابسط الاشياء، عذرتة لمرضه، وشفعت له على حسابك، او ضقت به واوشكت تكسر لنفسك احدى ارجلك كي تلقي به عن كاهلك، هو الآن قد يارك، للتو، فانار جلسته لا تزال دافئة، ام ذاك احتباس الدم في شعيرات وجهك حد الاختناق الذي اعطاك هذا اللون الازرق.. كم طالت جلسته فوق انفاذك.. تركك الى الابد واعطاك حريتك، فكم تساوي لك الآن تلك الحرية وانت مهمل كاي شيء بلا فائدة؟، اكانت قيمتك في عبوديتك؟ امامك باب مفتوح، لا يعطيك ادنى الامل في فرار محتمل، ثابت انت حتى تستعبدك من جديد يد اخرى فتمنحك قيمة جديدة، قيمتك دائما في «حرية الاستعباد»، ولا احد حوالياك، ان جاء سيدك من ذلك الباب الذي لا تحركه نسمة هواء او امل، يفتتح او يغللق.. كم طال الوقت وهو موصل عليك وعلى سيدك فتقاسمتما معا حياة واحدة.. ياسا واحدا، او املا واحدا في الانتهاء.. هل باح لك ببعض خواطره؟ اكان يفكر بصوت مسموع.. يعني، يصفر، يندندن، يبكي، يصرخ، يتوجع، يغفو، يصحو، يستفيق، يغيب.. كل افعال الكون مرت من معامجها عبره اليك.. هل سمعت ما دار خلصة بين سيدك واخر لم يكثر لوجودك.. طيب يعاوده ينس منه، زوجة تعلن تبرمها، خدم يتلقون منه الاوامر الطاغية.. ارايت قسوة في وجوه الذين دخلوا عليه، عليكما، او رحمة ترثي له او لك.. اكان لا يتكلم وسمعت الناس يتقاسمون ميراثه امامه، دون خجل، فلا يملك ان يرد، ويتعجلون له الموت؟، ولك الخلاص..؟ ارايت ابنا او بنتا يمسح عن وجهه الزمن الرديء..؟ ماذا سمعت إذن، كيف كانت اخلاقه ومزاجه؟، كم كان عمره قبلك ومعك.. اكانت ايضا تكرهه.. هو الآن رحل..

ام تراه كان نبيلًا، احبك واحببته، في عز شبابه، فنان، مفكر، اديب، فيلسوف، انسان.. كنت له الراحة واملاك الذات، يهرع اليك طلبا للفرجة إلا معك، يرتاح وترتاح، وتتقاسمان صمت الكلام وتدقق الوجد او الخيال.. كان عطفوا عليك.. يلامس لحظات قصيرة تسعد بها، ثم يعطي عنك، يتجول امامك فمن يتعرض لك وجاهته ورشاقته، تاتيها خاطرة فتدعوه فجأة ان يرتاح عليك، تشاركه فرحة الاكتشاف وتتابعه خطوة خطوة، كلمة كلمة، وهو يدونها مرتاحا على صدرك.. كانت قصيدة امسك بصورة فيها بعد عناء، انت شاعر مثله.. هل عرفت فوقك، لك، بعضا من الموسيقى مرة؟ هل جالسك، وحدك معه، يشاهد عرضا في ذلك الجهاز الصغير ودفق اليك نبضاته وانفعالاته وهو يتململ فوقك، يبذل ساقا فوق ساق، او يمدحها معا كمن ينام على صدرك، في مسندك اثر من راحته.. هو الآن رحل وترك الباب مفتوحا فلن تطول غيبته.. لن يعض الانتظار، سيعود يلهفته التي الفتها، فكم بعشقتك كما تعشقه، توارثته وتوارثك، عن اب عن جد، عريق انت في هذا البيت شهدت العز كله، يعرفون تاريخ مولدك، شاخث اعمار الذين مضوا عنك ولم تشخ.. تلك الاثار فقط على وجهك علامة ود ودفء، لا تجاعيد للزمن، انت راسخ مثله، لم تهتز مرة لان سيدك انخرط في تفكير عميق وراح يهز ساقه او ساقيه.. وراسخ هنا، ما اسعدك، في هذا البيت، فلو انك قد قادك الحظ الى صالون او مكتب لصرت واحدا كغيرك، وفارقت اهميتك وفرادتك، ولو كنت في دائرة حكومية لصرت ضحية للصراع، من دون مرتبتك يسعون اليك ويقتتلون، ومن يملكك يحرض عليك قدر عمره، او يتطلع الى مرتبة اعلى وكريسي اعلى.. يتبدلون عليك سريعا فلا يتركون لك فرصة لعلاقة حميمة مع احدهم، او بعضهم، لا تسعد وانت ساقم على ما دونك لانك تعرف انك دون ما يعلوك، او وانت ترى